قصة كتاب لورنس

«اعمدة الحكمة السبعة»

في وصف الثورة العربية

اصرَّ هوغارث[1] على لورنس بان التاريخ يقتضي منهُ انشاء كتاب جدير بذكرى الثورة العربية . فسلّم لورنس بذلك متلكئاً . ولكنهُ لما سلّم بهِ اقبل على إنجازه بنفس الاندفاع الذي امتاز بهِ في معاركها

قلما نجد كتاباً عظيماً انشىء ومؤلفهُ موزّع الفكر كما كان لورنس عند انشاء هذا الكتاب . بل ان اصولهُ فقدت مرتين ، الاولى في روما لما تحطمت الطيارة التي كان لورنس مسافراً بها الى الشرق الادنى وكان لا يزال في مستهلّه ، والثانية عند الانتقال من قطار الى آخر في محطة ردنغ بانكلترا وهو ذاهب الى اكسفرد ، وكان قد اوشك ان يتمّهُ

ما كاد يضع لورنس منهجاً لفصول الكتاب حتى تبيّن له انهُ في حاجة الى مراجعة اوراقهِ ويومياتهِ وكانت لا تزال في القاهرة . فعرض عليهِ الجنرال غروفز مندوب بريطانيا الجوّي في مؤتمر الصلح ان يسافر في احدى طائرات السلاح الجوّي ، وكانت طائفة منها متجهة الى الشرق الاوسط لتخطيط المواصلات الجوية الامبراطورية . فكتب لورنس مقدمة « الاعمدة السبعة » في الطائرة وهي محلقة فوق نهر الرون بين باريس ومرسيليا ولم يكد يتمها حتى تحطمت الطيارة التي كان فيها عند وصولها الى روما ، فقتل سائقها ونجا هو لانهُ كان جالساً وراء المحركات بعد ان رفض دعوة السائقين الى الجلوس بينهما . فنجا بحياته ولكن ثلاثاً من اضلاعه كسرت وكذلك عظمة ترقوته واخترقت احدى الاضلاع المكسورة رئتهُ وقد ظلّ اثر ذلك يبدو فيها على اثر اي جهد كبير يبذله

لم تكن هذه الحادثة الفردة التي نجا فيها من الموت بل ان لورنس قال للكابتن ليدل هارت — ونحن نلخص عن كتابهِ الموسوم ت . ي . لورنس — انهُ نجا سبع مرات من حوادث مميتة في خلال معالجتهِ الطيران وكانت حادثة روما سادستها . وقد نجا مرتين اخريين على الاقل من حادثتي اصطدام خطيرتين لانهُ كان شديد الميل الى السرعة وهو محترف دراجته الخاصة وكانت من احدث طراز في « الموتوسيكلات »

---

(١) هو دايفد جورج ١٨٦٢ — ١٩٢٧ عالم أثري انكليزي وكان رئيساً لبعثة إنجليزية الملكية وأميناً للمتحف الاشمولي في اكسفرد ، ومديراً للمكتب العربي في القاهرة خلال الحرب الكبرى وصديقاً حميماً للورنس

بعد ان لبث يومين او ثلاثة ايام في احد مشافي روما تحدث تلفونيًّا مع رفيقه في الحرب فرنسيس رُدْ نجل السر رنل رُدْ وكان السر رنل حينئذٍ سفيراً بريطانيًّا في عاصمة ايطاليا فنقل لورنس الى السفارة وبعد بضعة ايام اصرَّ على مواصلة السفر الى مصر مع سائر طيارات السرب. وكان عند مغادرته روما لا يزال في جباتر الجبر ، ولكن الحوائل التي حالت دون الاسراع في وصول الطيارات الى مصر مهّدت له فترة للراحة فالشفاء

فلما انتصف الصيف كان قد عاد الى باريس فنقل سكنهُ بعيد وصوله الى مقرّ الوفد العربي في دار قرب «بوا ده بولون» وهناك اكبَّ على عمله. وقد قال لورنس انهُ كان يكتب في فترات قد تطول احداها حتى تبلغ اربعاً وعشرين ساعةً ، لا يتوقف في خلالها الاّ مرة واحدة لتناول الطعام. وكان متوسط ما يكتبهُ حينئذٍ من الف كلمة الى الف وخمسمائة كلمة في الساعة . وقد بلغ اكثر ما كتبه في أطول هذه الفترات ٣٠ الف كلمة أو نحو سبعين صفحة من صفحات المقتطف اذا كان اساس القياس عدد الكلمات . وكان بين فترات الكتابة فترات طويلة ، يعمد في خلالها الى تحقيق ما كتب وتنقيحه

ذلك ان كتابته كانت ثلاث مراتب . ففي المرتبة الاولى ، كان يروي الحوادث كما يتذكرها ، ثم بعد ذلك يراجع الوثائق والمذكرات اليومية ويعيد كتابة ما كتب وهي المرتبة الثانية . أما المرتبة الثالثة فكانت تنقيح الكتابة من ناحية الاسلوب، حتى يكون الكتاب كلهُ متجانساً . وكانت المرتبتان الثانية والثالثة تستغرقان أياماً بعدد الساعات التي ينفقها في المرتبة الاولى

ومع ذلك ، كان كتابةُ هذا قد اوفى على التمام عند ما غادر باريس في أواخر الصيف . كان قد سرّح من الجيش في شهر يوليو ولكنهُ دعي الى حضور مؤتمر الصلح . وفي نوفمبر اختير زميلاً في كلية كل الارواح All Souls بجامعة اكسفرد تدوم سبع سنوات حتى يتاح لهُ وضع تاريخ الشرق الاوسط ولكنهُ لم ينتظم في كلية كل الارواح فوراً بعد عودته الى انكلترا بل أقام في غرفة فوق مكتب صديقه السر هربرت بايكر المهندس المعماري حيث مضى في انجاز كتابه عن الثورة العربية

وفي آخر السنة غادر لندن متجهاً الى اكسفرد حاملاً معهُ معظم أصول الكتاب في حقيبة من الجلد كالحقائب التي يحملها بعض التجار . وكان عليه ان ينتقل من قطار الى آخر في محطة ردنج فذهب الى بوفيه المحطة ليتناول بعض المنعشات فوضع حقيبتهُ تحت الحوان ولما نهض لتسفر بالقطار التالي نسيها فلما وصل الى اكسفرد تحدث بالتلفون مع مدير البوفيه فلم يعثر هذا على أثر لها

فكان شعوره الاول شعور فرج ، وكذلك كتب الى هوغارث فرحاً ساخراً فقال : « لقد ضيّعتُ الكتاب الملعون » ! ولكن هوغارث كان قد قرأ أصول الكتاب كلها أو معظمها هو وصديقان آخران من أصدقاء لورنس ، فاضطرب عند ما بلغهُ هذا النبأ ، وعاد يحاول اقناع لورنس بوجوب كتابته كتابة جديدة

ألقى هذا الطلب على كاهلي لورنس عبئاً لا ريب في أن كلَّ كاتب يؤثر التملص منهُ . ولا يزال

ضياع أصول كتاب جديد من اكبر المخاوف التي تقلق بال المؤلفين . ولكن لورنس تغلب على ذلك الشعور ومضى في عمله مستعيناً بذاكرته التي كادت ان تكون كألواح التصوير الشمسي، ومستنداً الى يومياته . فعاد الى الغرفة فوق مكتب النشر هربرت بايكر واكبَّ على العمل فما أقبل ربيع سنة ١٩٢٠ حتى كان لورنس قد كتب ثمانية من فصول الكتاب العشرة وهي الفصول التي ضاعت أصولها ، وتمم الفصلين الباقيين وكذلك تمَّ الكتاب

لم يكن الاسراع في النشر ، الباعث الذي حمل لورنس على بذل هذا الجهد العنيف في انجاز كتابه . بل كان غرضه الرئيسي تفريغ ما في ذهنه من حوادث الثورة العربية بكتابتها ، لا فائدة الغير ، او هو على الاقل لم يرمِ الى فائدة احد في عصره . ومما يدل على ان النشر لم يكن الغرض من الاسراع في انجاز الكتاب ان الكتاب لم ينشر قبل سنة ١٩٢٦ وانهُ الّف ثلاثة كتب اخرى ولم ينشر الاّ واحداً منها فقط . وكان احدها كتاباً وصف فيه رحلاته في الشرق الادنى والشرق الاوسط ، فما كاد يتمه حتى حرق اصوله حرقاً . ومن غرائب الاتفاق ان عنوان ذلك الكتاب كان «اعمدة الحكمة السبعة » وهو مستمد من عبارة جاءت في امثال سليمان : — «الحكمة بنت بيتها ونحتت اعمدتها السبعة . ذبحت ذبائحها ومزجت خمرها وصففت مائدتها . ارسلت جواريها تنادي على متون مشارف المدينة . من هو غرٌّ فليمِلْ الى هنا وتقول لكل فاقد اللب . هلموا كلوا من خبزي واشربوا من الخمر التي مزجت . اتركوا الغرارة واحيوا . انهجوا طريق الفطنة .....»

كان الكتاب الذي كتبه قبل الحرب ، كتاب وصف ينطوي على مغزى ادبي . ولكن الكتاب الذي كتبه بعد الحرب كان كتاب تاريخ ينطوي على فلسفة

انقضت فترة ليست بالقصيرة ، بين انجاز التأليف واخراج الكتاب . فقد كان لورنس غير راضٍ عن اسلوبه فيه . فمضى ينقحه ويصقل عبارته ولم يكتف بذلك بل عني بدراسة اصول التأليف دراسة وافية . فطلب الى نفر من اصدقائه ، وكان بينهم طائفة من اكتب الكتاب باللغة الانكليزية ، ان يكشفوا له عن المبادىء والقواعد التي يرعونها في كتاباتهم . وهو يعترف بأن ذلك لم يهده الى السبيل السوي، وان كبار الكتاب لا يجرون على قواعد معينة في الكتابة ، جرياً واعياً، وان الهواة فقط يفعلون ذلك . ولذلك كانت القواعد التي اتبعها في كتاباته ، نتيجة تفكيره الخاص وقد لابسته ملابسةً حتى اصبحت كل رسالة كتبها قطعة من الفن مطبوعة بطابعه الممتاز

وقد جرى على هذه القواعد في تنقيح كتابه في الثورة العربية خلال سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٢ فلما انجز النص الجديد، حرق النص القديم، وطبع ثماني نسخ منه بمطبعة اكسفرد، لان نفقة الطبع بالمطبعة كانت اقل نفقة من الطبع بالمكتاب او مثلها على الاقل، فكلفه طبعها — والكتاب مؤلف من ٣٣٠ الف كلة — نحو ثمانين جنيهاً . وكان يعتقد ان النسخ الثمان التي طبعها تكفي اصدقاءهُ الذين كانوا يرغبون في الاطلاع على وصف تام لحوادث الثورة العربية . ولكن دائرة الاصدقاء

الراغبين في ذلك كانت اوسع مما ظن ، فلما اشتدَّ اصدقاؤهُ في محاولة اقناعه بوجوب طبع الكتاب عجز عن ردهم ، وبوجه خاص لانه كان يميل ميلاً خاصًّا الى الكتب المطبوعة طبعاً متقناً والمجلدة تجليداً فاخراً

وكان الباعث الذي حمله على تقرير طبع الكتاب رغبة السر جرترود بل في حيازة نسخة منه بعد ما اطلعت على نسخة صديق لها . فحثته على اخراج طبعة محدودة لاصدقائه . فسلم بذلك لان الطبعة الجديدة تتيح له ان يخرجه على الوجه الذي يرتضيه . فعين لثمن النسخة الواحدة ثلاثين جنيهاً . ثم اتسعت دائرة الأصدقاء حتى صارت شاملة لاصدقاء الأصدقاء . ولما كثرت الاشتراكات حمله ذلك على التفكير في اخراج الكتاب إخراجاً أفخر مما كان يتوقع . فعهد الى طائفة من رجال الفن برآسة إريك كنتغتن في وضع الرسوم لهُ . وكذلك زاد ثمن النسخة الواحدة من ثلاثين جنيهاً الى تسعين جنيهاً . ولكنها مع ذلك ظلت دون ما يقتضيهِ هذا الاخراج من النفقة

وقد قدرت نفقات الطبعة المحدودة بثلاثة عشر الف جنيه ، وكان هو عاجزاً عن النهوض بها فتقدم أحد أصدقائه في الحرب — روبن بكستن وكان عند الاقدام على طبع الكتاب أحد مديري بنك مارتنز — متعهداً بتوفية الفرق بين نفقات الكتاب ودخله . ولكن لورنس رغب في أن يحول دون أية خسارة ، بتكبدها صديقهُ ، فاتفق معهُ على اختصار الكتاب ، واخراج طبعة عادية منهُ ، بعنوان « ثورة في الصحراء »

وأخيراً ظهر كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » في سنة ١٩٢٦ . فتنقلت بعض نسخهِ تنقلاً سريعاً من بائع الى شار الى ان عرضت احداها في دكان كتبيّ بلندن بسبعمائة جنيه

أما كتاب «ثورة في الصحراء» فظهر سنة ١٩٢٧ واعيد طبعهُ خمس مرات . فلما علم لورنس أن ما بيع من هذا الكتاب كافٍ لتوفية الدين على كتاب « الأعمدة السبعة » طلب الى الناشرين ان يكتفوا بذلك . ولكن ما بيع منهُ في الولايات المتحدة الاميركية ، أسفر عن ربح كبير للمؤلف

الاّ ان لورنس رفض رفضاً باتًّا أن يمسّ فلساً واحداً من هذا المال . بل انهُ كان قد دبَّر تدبيراً قبل نشر الكتاب ، اشترط فيهِ تعيين لجنة يحق لها أن تتصرف بأي مال يجنى من بيعهِ في الوجه الذي تراهُ . ولما طلب اليهِ أحد الناشرين الفرنسيين ان ينشر ترجمة لكتابهِ اشترط أن يطبع على النسخة الفرنسية العبارة الآتية : « خصص ربح هذا الكتاب لضحايا الظلم الفرنسي في سورية »

ومن عجائب ما يروى عن كتاب «الاعمدة السبعة» انهُ ظهر من غير ان يظهر عليه اسم المؤلف. والواقع ان اسمهُ كان مطبوعاً على تجربة الصفحة الاولى فلما اطلع عليها شطب اسمهُ ، فلما سئل في ذلك ، قال يبدو الكتاب كذلك أنق مما لو كان اسمي عليهِ (It looks cleaner) . أما النسخ التي أهداها الى أخصائهِ ، فلم يعمها بحروف T. E. L. أي ت.ي. لورنس بل عمها بحروف T. E. S. أي ت . ي . شو وهو الاسم الجديد الذي اتخذه عند ما انتظم في فرقة الطيارات وسلاح الطيران